مقياس الصدق والصحة

لم يكد مقتطف يناير ينتشر حتى كثر تحدث قرائه بالاحلام التي حلموها ثم جاءت الحوادث مؤيدة صحتها وبالاعمال التي شاهدوها مما يدل على ان بعض الناس يستطيعون قراءة افكار غيرهم ومعرفة الغيب والانباء بالمستقبلات . وذاكرنا البعض في ذلك فعلمنا ان اكثر ما ذكروه إنما يردون الى اسبابه الطبيعية او بالاشارة الى ما يرجح وقوعه فيه من الخطإ والمبالغة

ولا شبهة انه لو ادّعى مشعوذ من كبار المشعوذين انه يعمل كل اعماله بالسحر او بقوة روحية خارجة عن النواميس الطبيعية لصدقه تسعة وتسعون في المئة من الذين يشاهدون اعماله . اما وهو يقول انه يعمل ما يعمل بخفة اليد واستخدام بعض النواميس الطبيعية فيلم المشاهدون بقوله ولا ينسبون اعماله الى قوة سحرية او روحية . وما اعمال مصوري الارواح ومحركي الموائد ومكشفي المخبآت وقارئي الضمائر وعارفي الغيب باغرب من اعمال المشعوذين ولكنهم لا يفشون سر صناعتهم فتبقى مستورة عن اكثر الذين يشاهدونها . وقد يكونون هم مخدوعين غير خادعين لميل فطري فيهم الى تصديق الاوهام او خلل في ادمغتهم يدعوهم الى تصديق ما يُخيَّل اليهم فيخدعون ويخدعون غيرهم على غير عمد . ولو ذكرنا كل القصص التي رُويت لنا من هذا القبيل او التي اطّلعنا عليها في الكتب والجرائد والمجلات لملأنا بها مجلدات كثيرة . ومن ذلك حادثة وقعت في البلاد الانكليزية منذ بضع سنوات وكثر تحدث الناس بها وهذه خلاصتها نقلاً عن كتاب الدكتور تكت في ادلته ما وراء الطبيعة

نشرت جريدة التيمس في ٢٧ دسمبر سنة ١٩٠٨ كتاباً من القس بروك يقول فيه

«جاءتني خادمة البيت البارحة بين الساعة الرابعة والخامسة وقالت لي تعال وانظر الدكتور استلي (وهو قس البلد الذي كان فيه القس بروك وكان قد ذهب الى بلاد الجزائر واقام القس بروك نائباً عنه) فقلت لها القوا بن الدكتور استلي فقالت نعم الدكتور استلي . وسارت بي الى المكتبة وقالت انظر من هذا الشباك فالتفت واذا امامي صورة قسيس بثياب سوداء وطوق ابيض فظننتها في اول الامر صورتي معكوسة عن زجاج الشباك ودققت النظر فاذا الرجل جالس وراء مكتبته وامامه كتب وسلسلة ساعته في صدرته من جيب الى جيب كما يلبسها الدكتور استلي . ففتحت الشباك وخرجت الى الحديقة التي امامه والتفت الى الحائط المواجه للشباك حيث رأيت الصورة فلم اجد هناك احداً

وقد غادر الدكتور استلي هذا البلد في العاشر من دسمبر الى بلاد الجزائر ثم جاءت

الاخبار انهُ حدث اصطدام في سكة الحديد هناك اصيب بهِ هو وزوجتهُ »

وللحال ارسلت جريدة التيمس مندوباً من قبلها فقابل القس بروك والخادمة وكتب كل ما سمعهُ منهما فنشرتهُ . ويظهر منهُ انهما كانا ينظران من خلال الواح الزجاج وان الوقت كان نحو الساعة الخامسة مساء وان الظلمة كانت شديدة حينئذٍ في الحديقة لان الشمس تغيب باكراً في البلاد الانكليزية في اواخر دسمبر وان المكتبة التي كانا واقفين فيها كانت منارة

وظهر هذا الشبح للخادمة في التاسع والعشرين من دسمبر الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة وارتهُ لخادمة اخرى والقس بروك ولكن الشبح اختفى حالاً اذ ظهر ضوء القمر . ثم رأتهُ ثالثةً نحو الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة ولكنها لم ترهُ حينئذٍ لابساً ثياباً سوداء بل رداء ابيض . وكان مندوب جريدة التيمس معها حينئذٍ ولكنهُ لم يرَ غير صورة المكتبة . وفي كل مرة كان الشبح يظهر حينما يفتح غلقا الشباك الخشبيان ويختفي حينما يغلقان

ثم جاءت الاخبار من الجزائر ان الدكتور استلي اصيب بارتجاج الدماغ في اصطدام سكة الحديد في ٢٦ دسمبر لكنهُ لم يقتل كما ظُنَّ قبلاً بل كان حيًّا يرزق حينما ظهر شبحهُ للخادمة ولقس بروك اول مرة ثم لما ظهر ثاني مرة كان قد شفي من ارتجاج الدماغ

وتعليل ظهور شبحهِ للخادمة والقس سهل جدًّا فان كل من يجلس في غرفة منارة وينظر من شباك زجاجي فيها في ليلة شديدة الظلام يرى كأنَّ زجاج الشباك مرآة ترى فيها الاشباح التي في الغرفة ولكن صورها لا تكون جلية . وهذا ما يراهُ المسافرون ليلاً بسكك الحديد في شبابيك المركبات . ومتى كانت الصور غير جليَّة تخيَّلها المرء حسب ما يصورهُ لهُ الوهم . والظاهر ان الخادمة رأت صورتها اولاً فتوهمت انها صورة الدكتور استلي وحينئذٍ تخيلتها كذلك . وقد عُرف من البحث بعد ذلك انها قوية الخيال كثيرة الاوهام . ولما نادت القس بروك وقالت لهُ انها رأت شبح الدكتور استلي رأى هو صورتهُ في زجاج الشباك فتوهم انها صورة الدكتور استلي ورأى صورة المكتبة في الشباك فتوهم ان الدكتور استلي كان جالساً وراءها اما مندوب جريدة التيمس فلم يرَ غير صورة المكتبة لانهُ ليس من اصحاب الاوهام على ما يظهر

فهل كانت هذه الخادمة صادقة في ما قالت وهل صدق القس بروك في ما كتب بهِ الى جريدة التيمس . لا شبهة في انهما وصفا ما اعتقدا انهما رأياهُ وعبَّرا عمَّا يعتقدانهِ ومع ذلك لم يصدقا لانهما لم يريا الدكتور استلي حينئذٍ ولا صورتهُ لانهُ كان بعيداً عنهما في بلاد الجزائر وهما في البلاد الانكليزية ولم يكن ميتاً حتى يقال ان روحهُ فارقت جسدهُ وتجلَّت لهما . فان كان الإخبار عمَّا يراهُ الانسان بعينيهِ محتملاً للصدق والكذب فما هو الصدق اذاً

رأى الناس الشمس تشرق وتغرب يوماً بعد يوم منذ الوف والوف من السنين ولم يكتفوا بالرؤية المجرَّدة بل راقبها حكماؤهم في سيرها ورصدوها في بروجها واتجهوا الى طول النهار وقصره وميل فلكها على تلك البروج وحسبوا ذلك بالضبط التام ووضعوا الجداول والازياج لحركاتها وحركات سائر الكواكب بانين ذلك كلهُ على انها كرة نارية تدور حول الارض . وعندهم ان طلوع الشمس وغيابها ودورانها حول الارض احق الحقائق واصدق الحوادث ومع ذلك فطلوع الشمس وغروبها وحركاتها الظاهرة خداع في خداع والشمس ثابتة بالنسبة الى الارض والارض هي التي تدور على محورها فيظهر كأن الشمس دارت حولها . وكل مشاهدات الناس ورصودهم من اول عهدهم الى ان ثبتت قضية دوران الارض على محورها وحول الشمس مبنيَّة على الخطإ مع ان فيها اموراً كثيرة نعدها حقائق راهنة فاننا نستطيع ان نقول مثلاً ان الشمس ستشرق غداً ولا نخشى ان يخطئنا احد . وقولنا هذا مبني على مشاهدتنا ومشاهدة اسلافنا شروق الشمس وغروبها يوماً بعد يوم مدة قرون كثيرة . ولما زادت معارف الناس وثبت لهم ان الارض هي التي تدور لا الشمس لم يتغير اعتقادهم ان الشمس تشرق وتغرب لان شروقها وغروبها يوماً بعد يوم من الامور المثبتة بالاستقراء

ورب قائل يقول ألا يحتمل ان يحدث في الطبيعة حادث يمنع الشمس من الطلوع واذا وقع الاحتمال بطل الاستدلال . فنجيب نعم ان ذلك محتمل ولكن احتمالهُ بعيد جداً لانهُ مخالف لاختبار الناس في كل عصور الدهر حتى يحق لنا ان نقول ان طلوع الشمس حقيقة مقررة لا شبهة فيها

فمقياس الصدق والصحة في مسألة طلوع الشمس هو تكرار هذا الطلوع في مواعيد محددة مدة قرون كثيرة من غير خطل ولو كان ذلك لا يمنع احتمال عدم طلوعها مع ان هذا الطلوع امر ظاهري لا غير . وكل كلياتنا من هذا القبيل وما احسن ما قالهُ هكسلي في هذا الصدد وهو ان كل ما يعتقد الناس صحتهُ مبني على الترجيح نعم اننا نرى نواميس الطبيعة سائرة على سنن واحد لا يتغير ولكن ذلك لا يستلزم انها كانت كذلك دائماً في العصور الغابرة ولا انها ستبقى كذلك في العصور الثانية لانهُ يحتمل ان الكون كان على غير ما نراهُ الآن ولكن لا يمكن اثبات ذلك ونقلهُ من حيز الاحتمال الى حيز الـ كيد ما لم تقم عليهِ ادلة كثيرة قاطعة فاذا قال قائل انهُ حدثت منذ كذا الوف من السنين حوادث لا تنطبق على نواميس الكون المعروفة الآن فالذين يفكرون ولا يريدون ان يخدعوا ولا ان يخدعوا يحق لهم ان يطلبوا على ذلك شاهداً عدلاً وادلة وبينات يوثق بها

فالمقياس العلمي للصدق او للصحة هو تحقيق القضايا اولاً بالاستقراء الطويل وبالامتحان الدقيق فاذا استقرينا حادثة من الحوادث ورأيناها تتكرر دواماً على نسق واحد وصورة واحدة ثم امتحناها على اسلوب واحد فرأينا نتيجتها واحدة حق لنا ان نعدها صحيحة ونخصيها بين الحقائق العلمية مثل فعل انكينا بالحمى . والعلم بالجدري . والمصل بالدفتيريا . والسماد بالارض . والري بالزرع . والطبخ بالطعام . وكل الاعمال العلمية والزراعية والصناعية والتجارية لم يؤخذ بها ويُعتمد عليها الاَّ بعد ما ثبت الاستقراء والاختبار صحتها

لكن الذين يدَّعون صحة الاحلام ومناجاة الارواح ونحو ذلك لا يجرون على هذا الاسلوب في تحقيق دعاويهم بل يسلمون بقول من يعتقدون صدقهُ من غير دليل او يكتفون بحادثة واحدة ويبنون عليها اول حكم يخطر لهم . مثال ذلك ما يروى عن ثلاث نساء اتفقن على ابتياع زكيبة من الدقيق على ان تدفع كلٌّ منهنَّ ثلث الثمن فدفعت واحدة منهنَّ اقل من الثلث وادَّعت انها دفعت الثلث تماماً ولما انكرت صاحباتها عليها ذلك اكدت بقسم انها دفعت الثلث وطلبت من الله ان يميتها في تلك اللحظة ان كانت كاذبة . ويقال ان الله اجاب طلبها فماتت في الحال واقيم لها نصب في البلاد الانكليزية حيث ماتت كتبت قصتها عليهِ . فاذا فرضنا صحة هذه القصة كما رويت فلا نتَّخذ دليلاً على ان المرأة ماتت لانها كذبت اذ ان الذين يكذبون كل يوم اكثر من ان يعدوا ولا يموت احد منهم ولكن يمكن تعليل موتها بفعل عصبي من تأثير الخوف فيها فان كثيرين يموتون كذلك وقد شاهد الدكتور توكت اثنين ماتا فجأة من الخوف وذكر القاضي منتج في كتابهِ عن زيلندا الجديدة ان رجلاً من سكانها الاصليين اكل من طعام رئيسهِ على غير انتباه فلما ادرك خطأهُ وقع ميتاً

وما تقدم لا ينفي فعل الاسباب التي يقال انها فوق الطبيعة لان النفي على هذه الصورة اثبات قابل للشك . ولكن هذه الاسباب لا يصحُّ اثبات فعلها مالم تثبت على الاستقراء والامتحان مثل القضايا التي ثبتت صحتها . فاذا وجدنا ان كل من يكذب ويطلب ان يعاقبهُ الله بالموت على كذبهِ يموت حالاً وامتحنا ذلك في اناس كذبوا ثم طلبوا ان يعاقبهم الله على كذبهم بالموت فعوقبوا بهِ حكمنا بصحة هذه القضية وحسبانها من الحقائق المقررة الى ان يقوم ما ينقضها لان الاستقراء مهما كان واسعاً لا يكون تاماً الاَّ متى امتنع نفي ما ثبت بهِ

ثم ان الناس مختلفون كثيراً في احكامهم على الاستقراء والامتحان . والسبب الاكبر لذلك اختلاف تدريبهم . دخلنا مرةً مشهداً كبيراً قام فيهِ احد المشعوذين بعمل اعمالاً غريبة في قراءة الافكار واكتشاف المخبآت هو وزوجتهُ فاقمنا ساعة زمانية ونحن نراقب الحيل التي

يستخدمها في اعمالهِ الخفية فكتشف بعضها وتقيس غيرهُ عليهِ الى ان انتهت الجلسة فخرجنا مدهوشين من مهارتهِ . واتفق اننا مشينا مع اربعة او خمسة من اكبر المفكرين ودار الحديث في اعمال الشعوذ وزوجتهِ فرأيناهم مقتنعين انهما فعلا ما فعلا بقوى طبيعية او روحية غير معروفة ولما جعلنا نفسر تلك الاعمال دهشوا ولم يكادوا يصدقون سمعهم

واذا سكر الناس او اعتراهم الذهول اختلفت احكامهم وبعدت عن احكام الصاحين . فالسكران واخشاش والمصاب بالهجران يرون امامهم الافاعي والجرذان وتدور الدنيا بهم ويصعدون ويهبطون . ولا شيء من ذلك يشعر بهِ الصاحون او الاصحاء الذين حولهم . وهذا شأن الذين يعتريهم الذهول سواء كان بفعل فاعل كما في التنويم المغنطيسي او كان ذاتيًّا كالذين يشاهدون امورًا مدهشة تستهويهم فيرون ما لا وجود لهُ امامهم ويسمعون اصواتًا وهمية . ومن هذا القبيل الذين تتعب ادمغتهم او يستهويهم الخدل والزار والسحر او يقصدون الهياكل ويبيتون فيها للتجلي لهم الارواح او الاولياء كل هؤلاء تخطئ مشاعرهم فتجسم لهم الوهم وتصيرهُ حقيقةً

ومن هذا القبيل ايضًا الاساليب التي يتربَّى عليها الناس والمعتقدات الراسخة في نفوسهم فانها تؤثر في اذهانهم تأثير الاستهواء فلا يرون بعض الامور كما يراها غيرهم لان المعتقدات الراسخة في الذهن من قبلُ تكيف الصور الجديدة فيراها المرء على غير ما يراها من ليس في ذهنهِ تلك المعتقدات كما ان من ينظر الى لون احمر ثم ينظر الى لون اخضر لا يراهُ كما يراهُ من ينظر اليهِ بعد ان نظر الى لون اصفر او ازرق

روى الدكتور تكت ان رجلاً من خدمة الدين قام في ضميرهِ ان الله امرهُ ان يطرح نفسهُ في النهر ليغرق ففعل وحالما وقع في الماء تنبَّهت اعصابهُ الى الدفاع عن نفسهِ فسبح حتى خرج من الماء وركع على ركبتيهِ وطلب من الله ان يبين لهُ هل كان صوت ضميرهِ الذي يدعوهُ الى طرح نفسهِ في الماء صوابًا او خطأ فشعر كأنَّ قائلاً يقول لهُ بل كان صوابًا ويجب ان تلقي بنفسك في النهر ففعل ذلك ثانية ولحال تنبَّهت غريزتهُ الفطرية الى حفظ حياتهِ فخرج من الماء وأخذ الى المستشفى وعولج حتى شفي من وهمهِ

وزبدة القول ان الاحكام لا تكون صحيحة الاَّ اذا ثبتت بالاستقراء الطويل والامتحان المدقق وان مشاعر الناس كثيرًا ما تخطئ اما من تعب الدماغ او من قلة الدربة او من رسوخ بعض المعتقدات او فعل بعض المخدرات ولذلك لا يقبل فيها الاَّ شهادة الشهود العدول وسنأتي على تفصيل ذلك